

سبط ابن التعاويذي

نوري شاكرا الالوسي

بقلم : الدكتور مزهر السوداني

على الرغم من الاهمال المتواتر الذي اصاب ادباء القرن السادس خاصة وأدباء المصور العباسية المتأخرة عامة فان أسبابا مجهولة قد تساهم في إبراز ادب ما وجعله في دائرة الضوء على حين يبقى زملاؤه ومعاصروه ينتظرون من ينقذهم ويأخذ بأيديهم من ظلمات النسيان والاغفال .

وسبط ابن التعاويذي من القلائل الذين امتدت اليهم اقلام الباحثين منذ مطلع هذا القرن اذ نشر المستشرق الانكليزي ماركليوث ديوانه وكتب المرحوم الدكتور مصطفى جواد عنه مقالة في مجلة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٥ كذلك نشر المرحوم الاستاذ يوسف يعقوب مسكوني كتابا عن سبط ابن التعاويذي وتناوله الاخ الدكتور عبد الكريم توفيق في رسالته « الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد » .

وحين كنت في القاهرة سنة ١٩٧٦ وبينما اوشكت على الانتهاء من رسالتي للدكتوراه « الشعر العراقي في القرن السادس » اخبرني الدكتور النعمان القاضي بأن السيد نوري شاكرا الالوسي قد نشر رسالته للماجستير عن سبط ابن التعاويذي ، وحين عدت الى العراق اسرعت بقراءة تلك الرسالة وفرحت بها لانني وقفت على اطراف من قصة صاحبها وعرفت كيف انتقل هذا البحث بين القاهرة وبغداد حتى طبع رسالته سنة ١٩٧٥ .

ان دراسة الاخ نوري - وقد اجيزت بدرجة جيد جدا من جامعة بغداد - هي اول دراسة جامعية شاملة كتبت عن سبط ابن التعاويذي حتى يخيل لك من استعراض فهرست الرسالة ان الرجل لم يترك زيادة لمستزيد وحسبه انه استدرك على ماركليوث اكثر من ١٥٠٠ بيت ، ولكن تناول القرن السادس - والكثير من مصادره غير ميسور - ودراسة الماجستير كأول دراسة جادة يمارسها الباحث ، أقول ان كل ذلك مع الظروف القاسية التي رافقت الاخ وهو يبحث وينقب لا بد ان يترك في الدراسة آثارا سأحاول الاشارة اليها فيما يلي .

ان رسالة السيد نوري تقع في ثلاثة أقسام رئيسة : تمهيد وبابين ، ولذلك سأدرسها بحسب تقسيم المؤلف .

١ - التمهيد :

وهو دراسة يغلّب عليها عنصر التاريخ وتقع في أكثر من عشرين صفحة (١٥ - ٣٩) مقسمة على الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية والادبية والتمهيد - كما هو معروف - الاساس الذي يبني عليه المؤلف دراسته كما انه طليعة البحث ومقدمته ، ولذلك يجب ان يخطو الباحث في هذه المرحلة بعذر وان يوضح ويشرح في الهوامش كل نقطة او اصطلاح او علم ربما ورد في النصوص المنقولة من الكتب المختلفة ، وبذلك يكون المطالع قد ألم بجوانب من الفترة تساعد على فهم الاراء التي يطرحها المؤلف بعد ذلك في دراسته .

١ - لقد شرح المؤلف وأوضح بعض الفواض في رسالته ولكنه ترك البعض الآخر بحاجة الى ايضاح ، ففي ص ٣٢ قال : الضرب النحوي الواسطي وقد حفظ القرآن واتقن القراءات ٠٠٠ فلم يذكر اسم الرجل وكذلك لم يشير الى المصدر . وفي ص ٢٠ قال : وفي تلك الوقعة قال النشو بن نفاذه ٠٠٠ فمن هو الشاعر ؟ واين مصدر هذا الكلام ؟ وفي هذه الصفحة ذاتها قال : ٠٠ فقال في ذلك الشاعر الامير نجم الدين يهنئه ٠٠ وقد اغفل المؤلف ترجمة هذا الامير الشاعر ولم يذكر مصدره (وانظر ص ٣٨ ايضا) .

ومن الطريف في موضوع المصادر هذا ان السيد نوري ربما اشار الى اسم المصدر ولكنه لا يذكر الجزء والصفحة اللذين اخذ منهما ، ففي ص ٢٨ ذكر المؤلف في الهامش ٧٩ الطبقات الكبرى للشعمراني دون ذكر اي شيء آخر ، وقد تكرر هذا في الهوامش ٨٠ ، ٨٣ من الصفحة نفسها (وانظر ايضا ص ٦٣ هامش ٧٦)

ب - وفي تمهيد السيد نوري قائمتان الاولى على الصفحتين ٣١ ، ٣٢ والثانية على الصفحتين ٣٨ ، ٣٩ .

اما القائمة الاولى فقال السيد نوري انها لأشهر الفقهاء والمحدثين في عصر سبط ابن التعاويذي مع العلم ان من بين المشايخ اليهم فيها هبة الله بن الشجري - النحوي اللغوي - وعز الدين بن الاثير - المؤرخ - والحريري صاحب المقامات ، وكذلك ذكر فيها صاحب معجم الادباء ومؤلف خريدة القصر والقفطي مؤلف انباء الرواة ، ومعظم هؤلاء بل جميعهم من الاعلام المشهورين في غير الحقل الذي ذكره السيد نوري ، أما اذا كان يصير على رأيه فيجب ان يذكر المصادر التي تؤيد وجهة نظره ، وقد يقول ان الهوامش ليست خالية من اسماء

بعض الكتب وهو قول يمكن ادراك نسبة الصدق فيه اذا علمنا أن في ص ٣١ ثلاثة عشر اسما وفي اسفلها ثلاثة هوامش فقط ، وكذلك الامر في ص ٣٢ ففي هامشها لم يذكر سوى وفيات الاعيان وفي المتن ذكر المؤلف خمسة عشر اسما .

أما القائمة الثانية المذكورة في ص ٣٨ - ٣٩ فقد كتب عليها السيد نوري انها لأشهر كتاب القرن السادس ، والمفروض انها تساعد في توضيح الجو الادبي الذي اغترف سبط ابن التعاويذي من ينابيعه ولذلك يجب ان يكون التركيز بالدرجة الاولى على كتاب بغداد - لأن سبط ابن التعاويذي منهم - ثم كتاب العراق بعد ذلك ، أما ذكر ثلاثة كتاب مصريين في تلك القائمة ص ٣٩ فلست اعرف فائدته أو أثره .

٢ - الباب الأول :

وهو عن سيرة الشاعر ويقع في ثلاثة فصول (ص ٤١ - ٨٩) .

أ - في ص ٤٥ قال المؤلف : ان سبط ابن التعاويذي والابلة والحيص بيص كانوا منقطعين الى ابن هبيرة الوزير (وقد كرر هذا القول ص ٦٢) ثم يشير الى وفيات الاعيان كمصدر لهذه العبارة ، وبالرجوع الى المصدر لا نجد مثل هذا الكلام ، كذلك لا يشير ابن خلكان - كما يقول السيد نوري - الى ان سبط ابن التعاويذي قد مدح ابن هبيرة بكثير من القصائد وانما مدحه بقصيدة واحدة وقد نص الديوان ص ٣٤٤ انه لم ينشدها أباه .

ب - في ص ٤٥ وفي الهامش ٢١ ترجم لابن هبيرة ، وقد نسي المؤلف انه سبق ان ترجم لابن هبيرة في ص ١٦ هامش ٩ (وقد كرر هذا مع الابلة اذ ترجم له مرتين ص ٤٥ ، ص ٨٠) .

ج - ص ٤٦ هامش ٢٦٠ ذكر كلاما عاما في التعريف باستاذ الدار ، وقد فات الاخ المؤلف ان ابن جبير في رحلته - وهي من مصادر رسالة السيد نوري - قد عرف باستاذ الدار (تنظر رحلة ابن جبير ص ٢١٣ ط ، دار مصر للطباعة ، وانظر ايضا صبح الاعشى ٢٠/٤) .

د - قال المؤلف - نقلا عن كامل ابن الاثير - ان قطب الدين قايماز شقيق علاء الدين تنامش . وبالرجوع الى ابن الاثير نجده يقول - في حوادث سنة ٥٧٠ - ان قطب الدين هو زوج اخت علاء الدين تنامش .

هـ - قال السيد نوري : ان سبط ابن التعاويذي يتبوا مكانة رائمة بيمن

مماصريه ٠٠ فقد كان له ديوان يجتمع فيه عليه القوم . قال ابن خلكان : وكان شيخنا الامام القاضي شهاب الدين محمود رحمه الله تعالى لا يفارق ديوانه ويعجبه طريقه ويقتفي أسلوبه . ثم يذكر مصدرين لهذا الكلام هما الوافي ونكت الهميان .

ويلاحظ على كلام السيد نوري هذا ما يلي :

١ - ان الاخ المؤلف يقول قال ابن خلكان والمفروض ان النص من الوفيات والهامش يشير الى كتابين لصالح الدين الصفدي .

٢ - ان لفظة ديوان في الوفيات يقصد بها مجموع شعري وليس الديوان الذي يجتمع فيه عليه القوم .

٣ - وفي هذه الصفحة ذاتها - أي ص ٥٧ - وفي الهامش ٥٥ يترجم للقاضي شهاب الدين شيخ ابن خلكان على انه القاضي الاصبھاني ابو طالب محمود بن علي . ويغلب على الظن ان السيد نوري قد أخطأ وأن القاضي الاصبھاني لم يكن شيخا لابن خلكان بدليل ان ترجمته في الوفيات (١٧٤/٥ ط ، الدكتور احسان عباس) خلت من لفظ « شيخنا » ولم يذكر صاحب الوفيات انه يلقب بـ شهاب الدين ، على خلاف ما نقله السيد نوري عنه .

و - ص ٥١ ورد البيت التالي غير مدور هكذا :

فبئس والله ما صنعت فاضرت

بنفس وبئس ما صنعنا

والصواب أن يكتب :

فبئس والله ما صنعت فاضـ

ررت بنفسي وبئس ما صنعنا

وقد كتب صحيحا في الديوان الذي نقل منه السيد نوري .

وقد تكرر هذا الخطأ في الابيات المدورة في ص ٥٢ : فان اردتم أمرا يزول ٠٠ وص ٥٥ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٧٠ .

ز - ص ٨١ قال السيد نوري عن سبط ابن التعاويذي : ٠٠٠ ولم يتجاوز الاشتقاق من جامد كشعراء القرن الخامس ٠٠٠ الخ . وهذا الكلام غير صحيح لأن الشاعر قد اشتق تجيل من الجبل - وهو جامد - فقال

من قسيدة يمدح فيها الخليفة المستضيء :
فاليك رائقة المعاني جزلة الـ
الفاظ تسهل في علاك وتجبل

(الديوان ص ٢٣٠) .

ح - في الفصل الثالث من هذا الباب الأول ص ٨٢ قال السيد نوري : ان
سبط ابن التعاويذي كان مسلما حقا مؤمنا قوي الايمان ، نافع عن
الاسلام وتعصب له وسل لسانه بوجوه اعدائه ٠٠ وقال ص ٨٣ عن
مديح الشاعر لخلفاء بني العباس : ٠٠ ويزداد حماسة في تقديسه
لهم وحماسه تكاد تدفعه الى المبالغة .

ان مبالغة سبط ابن التعاويذي في مديحه للخليفة المستضيء وابنه
صارت الأباطيل والاكاذيب التي يمدح بها ابن هاني المعز الفاطمي تتكرر
مرة أخرى ولكن في القرن السادس مع فارق واحد هو ان سبط ابن
التعاويذي كان مسلما مؤمنا قوي الايمان بينما قال القدماء في ابن هاني
ما لم يقل مالك في الخمر . قال ابن هاني في المعز :

اذا انت لم تعلم حقيقة فضله
فسائل به الوحي المنزل تعلم
(شرح ديوان ابن هاني ص ٦٦٦ وقال أيضا :
نطق بك السبع المثاني السننا
فكفيننا التعريض والتصريحنا
شهدت بمفخر السماوات العلا
وتنزل القرآن فيك مديحنا
(نفسه ص ١٦٠ - ٦١) وقال سبط ابن التعاويذي في المستضيء :

مدحته السبع المثاني فما تبـ
بلغ غايات مدحه البلقاء

(الديوان ص ٢ وقال :

عن جودهم رويت أحاديث الندى
وبفضلهم نطق الكتاب المنزل
ان كنت تنكر مآثرات قديمهم
فاسأل بها « يا ايها المزمـل »

(نفسه ص ٢٢٨)

٣ - الباب الثاني :

وهو بعنوان سبط ابن التعاويذي الشاعر ، ويقع في أربعة
فصول (ص ٩٣ - ٢٢٥)

١ - ص ٢٢٨ قال السيد نوري بأن المستشرق ماركليوث لم يسقط
بعض شعر سبط ابن التعاويذي متعمدا * وهو قول ليس صحيحا

لأن ماركليوث نص - في هوامش الديوان - انه اسقط بعض ابیات
لعدم المنفعة او الفائدة (انظر هامش ص ٢٥ من الديوان)
وبالرجوع الى الابیات المحدوفة في مضمير الحقائق - وهو من
مصادر السيد نوري - نجد ان الشاعر يهاجم فيها الصليبيين
ويصف ما فعله صلاح الدين بهم *

ب - لم يشر السيد نوري - مجرد اشارة - الى الهفوات والالهام التي
وقعت في طبعة ماركليوث للديوان وهي كثيرة منها ما ورد في
الصفحات ٢ (البيت الاخير) ، ٤ (البيت الثاني ، الرابع)
السابع ، ٧ (الرابع) ، ٢٦ (الثاني) ، ص ١٣٢ (البيت
السادس من أسفل) ، ١٤١ (البيت الرابع) ٠٠٠ ص ٢٥٨
(البيت قبل الاخير) ، ص ٤٤٨ (آخر بيت) ٠٠

ج - حين يستشهد السيد نوري بنصوص من شعر الشاعر نجده - أحيانا -
ينتقي أبياتا متباعدة من القصيدة الواحدة دون أن يشير الى الشعر
المحدوف مما يجعل في النص خللا : فمثلا في ص ١٢٥ استشهد
بالبيت الاول من احدى قصائد الشاعر في الوزير عضد الدين وبعده
مباشرة ذكر البيت الخامس ثم السابع وهكذا * وقد تكرر ذلك في
الصفحات ١١٥ ، ١٠٧ ، ٩٧ ٠٠٠